

مَعْنَى ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾

الْحَسْبُ قَالِ أَهْلُ الْمَعَانِي: الْخُسْرُ [كَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ]: هَلَكَ رَأْسُ الْمَالِ أَوْ نَقَصُهُ. أَيْ: فِي خَسَارَةٍ وَهَلَكَ وَنُقْصَانٍ وَسُوءِ حَالٍ وَضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ حَتَّى يَمُوتَ. وَخَسَارَتُهُ رَأْسُ مَالِهِ الَّذِي هُوَ نُورُ الْفِطْرَةِ وَالْهَدَايَةِ الْأَصْلِيَّةِ؛ بِإِيثارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّذَاتِ الْفَانِيَّةِ وَالْإِحْتِجَابِ بِهَا وَبِالذَّهْرِ، وَإِضَاعَةِ الْبَاقِي فِي الْفَانِي ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وَالْمُرَادُ بِهِ مَا يَنْعَمُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَقَاتِ الْمُهْلِكَةِ. فَ(الْخُسْرُ) وَ(الْخُسْرَانُ) مَصْدَرَانِ؛ وَالْمَعْنَى: النُّقْصَانُ وَذَهَابُ رَأْسِ الْمَالِ، كَمَا قِيلَ: الْكُفْرُ فِي الْكُفْرَانِ، وَ(خُسْرَانِ الْإِنْسَانِ) هُوَ نَفْسُهُ وَعُمُرُهُ. وَقِيلَ: أَيْ: لَفِي غُبْنٍ.

قَالَ الْأَخْفَشُ: لَفِي خُسْرٍ فِي هَلَكَةٍ. وَقَالَ الْقَرَاءُ: عُقُوبَةٌ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ

عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ (الطَّلَاق/٩).

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَفِي شَرٍّ.

وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

فَقَوْلُهُ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾؛ فِيهِ تَفْسِيرَانِ:

وَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا حَمَلْنَا (الْإِنْسَانَ) عَلَى الْجِنْسِ كَانَ مَعْنَى (الْخُسْرِ) هَلَكَ نَفْسِهِ وَعُمُرُهُ،

إِلَّا الْمُؤْمِنَ الْعَامِلَ فَإِنَّهُ مَا هَلَكَ عُمُرُهُ وَمَالُهُ، لِأَنَّهُ اِكْتَسَبَ بِهِمَا سَعَادَةً أَبَدِيَّةً.

وَإِنْ حَمَلْنَا لَفْظَ (الْإِنْسَانِ) عَلَى الْكَافِرِ؛ كَانَ الْمُرَادُ كَوْنُهُ فِي الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ إِلَّا مَنْ آمَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَحَيْثُ يَتَخَلَّصُ مِنْ ذَلِكَ الْخُسَارِ إِلَى الرَّبِّحِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا فِي خُسْرَانٍ مِنْ تِجَارَتِهِمْ إِلَّا الصَّالِحِينَ وَحَدَهُمْ، لِأَنَّهُمْ اشْتَرَوْا الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا، فَرَبِحُوا وَسَعَدُوا، وَمَنْ عَدَاهُمْ تَجَرَّوْا خِلَافَ تِجَارَتِهِمْ، فَوَقَعُوا فِي الْخِسَارَةِ وَالشَّقَاوَةِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (لَفِي الْخُسْرِ)، لِأَنَّ التَّنْكِيرَ يُفِيدُ التَّهْوِيلَ تَارَةً وَالتَّحْقِيرَ أُخْرَى، فَإِنَّ حَمَلْنَا عَلَى الْأَوَّلِ - وَهُوَ الْأَظْهَرُ -؛ كَانَ الْمَعْنَى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ عَظِيمٍ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ بِعَظَمٍ مَنْ فِي حَقِّهِ الذَّنْبُ، أَوْ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي مُقَابَلَةِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ حَاصِلَانِ فِي ذَنْبِ الْعَبْدِ فِي حَقِّ رَبِّهِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ ذَلِكَ الذَّنْبُ فِي غَايَةِ الْعَظَمِ.

وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الثَّانِي - أَيِّ: عَلَى التَّحْقِيرِ -؛ فَيَكُونُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خُسْرِ الشَّيَاطِينِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ خُسْرَانَ الْإِنْسَانِ دُونَ خُسْرَانَ الشَّيْطَانِ، وَفِيهِ بَشَارَةٌ أَنَّ فِي خَلْقِي مَنْ هُوَ أَعْصَى مِنْكَ، وَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ.

فَلَمْ يُبَيِّنْ - هُنَا - نَوْعَ الْخُسْرَانِ فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ بَلْ أَطْلَقَ لِيَعْمَ، وَجَاءَ بِحَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ لِيُشْعِرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَعْرِقٌ فِي الْخُسْرَانِ وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

وَأُفْرِدَ (الْخُسْرَ) مَعَ كَثْرَةِ أَنْوَاعِهِ؛ لِأَنَّ (الْخُسْرَ الْحَقِيقِيَّ) هُوَ حِرْمَانٌ عَنِ خِدْمَةِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَكَالْعَدَمِ.

وَمَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاةٍ فَهُوَ فِي غَايَةِ الْخُسْرَانِ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ اشْتَرَى الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا فَرَبِحَ وَسَعَدَ.

وَلَكِنْ؛ أَيُّ خُسْرَانٍ أَعْظَمُ مِمَّنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؟



وَفِيهِ مُبَالَغَاتٌ، وَدُخُولُ «إِنَّ»، وَ«اللَّامِ»، وَإِحَاطَةُ الْخُسْرِ بِهِ، أَيُّ: هُوَ فِي طَرِيقِ خُسْرِ
وَسَبَبِ خُسْرِ. فَقَوْلُهُ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ كَالْمَغْمُورِ فِي الْخُسْرَانِ^(١)، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِهِ مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ وَكَلِمَةُ (إِنَّ)، فَإِنَّهَا لِلتَّكْيِيدِ، وَحَرْفُ (اللَّامِ) فِي ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.
فَالِتَّنْكِيرُ - عَلَى الرَّاجِحِ هُنَا - لِلتَّفْخِيمِ؛ أَيُّ: لَفِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا
اللَّهُ فِي مَتَاجِرِهِمْ وَصَرَفِ أَعْمَارِهِمْ فِي مَبَاغِيهِمْ.

فَهُمْ فِي نَقْصٍ بِحَسَبِ مَسَاعِيهِمْ فِي أَهْوَائِهِمْ وَصَرَفِ أَعْصَارِهِمْ فِي أَغْرَاضِهِمْ لِمَا
لَهُمْ بِالطَّبْعِ مِنَ الْمِيلِ إِلَى الْحَاضِرِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْغَائِبِ وَالْإِعْتِرَاقِ بِالْفَاقِي أَعْمٌ مِنْ أَنْ
يَكُونَ (الْخُسْرُ) قَلِيلًا أَوْ جَلِيلًا بِحَسَبِ تَنَوُّعِ النَّاسِ إِلَى أَكْيَاسٍ وَأَرْجَاسٍ، فَمَنْ كَانَ كَافِرًا
كَانَ فِي كُفْرَانٍ، وَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا عَاصِيًا كَانَ فِي خُسْرَانٍ إِنْ كَانَ بِالْإِعْصِيَةِ وَالْإِلَّا كَانَ
فِي مُطْلَقِ الْخُسْرِ، وَهُوَ مَدْلُولُ الْمَصْدَرِ الْمَجْرَدِ.

وَذَلِكَ بَيْنَ غَايَةِ الْبَيَانِ فِي الْكَافِرِ لِأَنَّهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ،
وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ - وَإِنْ كَانَ فِي خُسْرِ دُنْيَاهُ فِي هَرَمِهِ وَمَا يُقَاسِيهِ مِنْ شَقَاءِ هَذِهِ الدَّارِ الدُّنْيَا -
فَذَلِكَ مَعْفُوفٌ عَنْهُ فِي جَنْبِ فَلَاحِهِ فِي الْآخِرَةِ وَرَبِّحَهُ الَّذِي لَا يَفْنَى، وَمَنْ كَانَ فِي مُدَّةِ عُمُرِهِ
فِي التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالْعَمَلِ بِحَسَبِ الْوَصَاةِ فَلَا خُسْرَ مَعَهُ، وَقَدْ جُمِعَ لَهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ.

(١) فِيهِ أَبْلَغُ مِنْ (إِنَّكَ خَاسِرٌ)؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/ ٣٤) وَلَمْ يَقُلْ (وَكَانَ كَافِرًا)، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة/ ٣٥) وَمِثْلُ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ آخِيهِ قَالَ يَوَلَّوْا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ
هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ آخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة/ ٣١) وَلَمْ يَقُلْ: (فَأَصْبَحَ نَادِمًا)، وَمِثْلُ
قَوْلِ الْمُسْلِمِ فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ! اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ) وَلَمْ يَقُلْ: (اللَّهُمَّ! اجْعَلْنِي
تَوَابًا وَاجْعَلْنِي مُتَطَهِّرًا)، وَهَكَذَا.

فَدِ الْخَسَارِ) مَرَاتِبُ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ:

- قَدْ يَكُونُ خَسَارًا مُطْلَقًا؛ كَحَالِ مَنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَفَاتَهُ النَّعِيمُ، وَاسْتَحَقَّ الْجَحِيمَ.

- وَقَدْ يَكُونُ خَاسِرًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ دُونَ بَعْضٍ، فَكُلُّ مَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا مِنْ الطَّاعَاتِ أَوْ حَتَّى الْأَوْقَاتِ؛ يَنْدِمُ عَلَى فَوَاتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ حَوْلَ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا عَمَّمَ اللَّهُ الْخَسَارَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ؛ إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:

* الْإِيمَانِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَلَا يَكُونُ (الْإِيمَانُ) بِدُونِ (الْعِلْمِ)، فَهُوَ فَرَعٌ عَنْهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ.

* وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهَذَا شَامِلٌ لِأَفْعَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا؛ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الْمُتَعَلِّقَةِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ؛ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ.

* وَالتَّوَّاصِي بِالْحَقِّ؛ الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، أَيُّ: يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِذَلِكَ، وَيُحْتِثُهُ عَلَيْهِ، وَيُرْعِبُهُ فِيهِ.

* وَالتَّوَّاصِي بِالصَّبْرِ: عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَعَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ (الْبَلَاءِ).

فَبِالْأَمْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ يُكْمَلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَبِالْأَمْرَيْنِ الْآخِرَيْنِ يُكْمَلُ غَيْرَهُ.

وَبِتَكْمِيلِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ؛ يَكُونُ الْإِنْسَانُ قَدْ سَلِمَ مِنَ الْخَسَارِ، وَفَازَ بِالرَّبْحِ الْعَظِيمِ.

وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى: الْعِلْمِ بِالْإِحْتِيَاجِ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ لِبَيَانِ الْمَرْضِيِّ لِهَذَا مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ إِيْمَانًا وَإِسْلَامًا وَإِدَامَةً لِذَلِكَ؛ لِيَكُونَ فَاعِلُهُ مِنْ قَبْضَةِ الْيَمِينِ وَتَارِكُهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّمَالِ.



وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عُمِّرَ فِي الدُّنْيَا وَهَرِمَ لَفِي نَقْصٍ وَضَعْفٍ وَتَرَاجُعٍ؛ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ يُكْتَبُ لَهُمْ أَجُورُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي شَبَابِهِمْ وَصِحَّتِهِمْ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ (التين / ٤، ٥).

وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُ عَن تَضْيِيعِ عُمُرِهِ، لِأَنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِالْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ فَالْخُسْرُ ظَاهِرٌ، وَكَذَلِكَ إِنَّ مَرَّتَ فِي مَبَاحٍ، وَإِنْ مَرَّتَ فِي طَاعَةٍ فَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا عَلَى وَجْهِ أَكْمَلٍ، أَيْ: مِنَ الْخُشُوعِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَتَرَكَ الْأَعْلَى، وَالْإِتْيَانَ بِالْأَذْنَى نَوْعُ خُسْرَانٍ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: قَوْلُهُ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يُفِيدُ التَّوْحِيدَ، مَعَ أَنَّهُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ (الْخُسْرِ) وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْخُسْرَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ حِرْمَانُهُ عَن خِدْمَةِ رَبِّهِ، وَأَمَّا الْبُوقِي وَهُوَ الْحِرْمَانُ عَنِ الْجَنَّةِ، وَالْوُقُوعُ فِي النَّارِ، فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَوَّلِ كَالْعَدَمِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي وُجُودِهِ فَوَائِدُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) (الذاريات / ٥٦) أَيْ لَمَّا كَانَ هَذَا الْمَقْصُودُ أَجَلَ الْمَقْاصِدِ كَانَ سَائِرُ الْمَقْاصِدِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَالْعَدَمِ. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَنَ بِهِذِهِ الْآيَةَ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى مُبَالَغَتِهِ تَعَالَى فِي بَيَانِ كَوْنِ الْإِنْسَانِ فِي خُسْرٍ:

أَحَدُهَا: كَلِمَةُ (إِنَّ)؛ فَإِنَّهَا لِلتَّكْيِيدِ.

وِثَانِيهَا: حَرْفُ (اللَّامِ) فِي ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.

وِثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ كَالْمَغْمُورِ فِي الْخُسْرَانِ، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَهَاهُنَا احْتِمَالَانِ:

الأوّل: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أَي: فِي طَرِيقِ الْخُسْرِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة/ ١٧٤)، وَكَقَوْلِهِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠) (النساء/ ١٠)، وَذَلِكَ لَمَّا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ النَّارَ.

الإحتمال الثاني: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُ عَنْ خُسْرٍ، لِأَنَّ الْخُسْرَ هُوَ تَضْيِيعُ رَأْسِ الْمَالِ، وَرَأْسُ مَالِهِ هُوَ عُمُرُهُ، وَهُوَ قَلَمًا يَنْفَكُ عَنْ تَضْيِيعِ عُمُرِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِالْإِنْسَانِ فَإِنْ كَانَتْ مَصْرُوفَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ فَلَا شَكَّ فِي الْخُسْرَانِ، وَإِنْ كَانَتْ مَشْغُولَةً بِالْمُبَاهَاةِ فَالْخُسْرَانُ أَيْضًا حَاصِلٌ، لِأَنَّهُ كَمَا ذَهَبَ لِرُبَيْقٍ مِنْهُ أَثَرٌ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مَتَمَكِّنًا مِنْ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ عَمَلًا يَبْقَى أَثَرُهُ دَائِمًا، وَإِنْ كَانَتْ مَشْغُولَةً بِالطَّاعَاتِ فَلَا طَاعَةَ إِلَّا وَيُمْكِنُ الْإِتْيَانُ بِهَا، أَوْ بغيرِهَا عَلَى وَجْهِ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ مَرَاتِبَ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، فَإِنَّ مَرَاتِبَ جَلَالِ اللَّهِ وَقَهْرِهِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، وَكُلَّمَا كَانَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِهَا أَكْثَرَ كَانَ خَوْفُهُ مِنْهُ تَعَالَى أَكْثَرَ، فَكَانَ تَعْظِيمُهُ عِنْدَ الْإِتْيَانِ بِالطَّاعَاتِ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ، وَتَرَكَ الْأَعْلَى وَالْإِقْتِصَارُ بِالْأَدْنَى نَوْعُ خُسْرَانٍ، فَثَبَّتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُ الْبَتَّةَ عَنْ نَوْعِ خُسْرَانٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَالْتَنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ فِي الْخُسْرَانِ وَالْخَيْبَةِ، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ سَعَادَةَ الْإِنْسَانِ فِي حُبِّ الْأَخْرَةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ الْأَسْبَابَ الدَّاعِيَةَ إِلَى الْأَخْرَةِ خَفِيَّةٌ، وَالْأَسْبَابَ الدَّاعِيَةَ إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا ظَاهِرَةٌ، وَهِيَ الْحَوَاسُّ الْخَمْسُ وَالشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ، فَلِهَذَا السَّبَبِ صَارَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ مُشْتَغِلِينَ بِحُبِّ الدُّنْيَا مُسْتَعْرِقِينَ فِي طَلَبِهَا، فَكَانُوا فِي الْخُسْرَانِ وَالْبُورِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ التِّينِ (٤، ٥): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدَتْهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ مِنَ الْكَمَالِ وَالْإِنْتِهَاءَ إِلَى النُّقْصَانِ، وَهَاهُنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ مِنَ النُّقْصَانِ وَالْإِنْتِهَاءَ إِلَى الْكَمَالِ، فَكَيْفَ وَجْهَ الْجَمْعِ؟ قُلْنَا: الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ التِّينِ أَحْوَالُ الْبَدَنِ، وَهَاهُنَا أَحْوَالُ النَّفْسِ؛ فَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ.



وَقَدْ جَاءَ (الْحُسْرَانُ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُجْمَلًا، وَقَدْ بَيَّنَّتْهُ آيَاتُ أُخْرَى فِي كِتَابِ اللَّهِ. أَمَّا الْحُسْرَانُ بِالْكَفْرِ؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) (الزُّمَرُ / ٦٥).

وَأَمَّا الْحُسْرَانُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيِنَتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩) (الْمُؤْمِنُونَ / ١٠٣). وَأَمَّا التَّوَاصِي بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ فَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَالْحَقُّ هُوَ الْإِسْلَامُ بِكَامِلِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) (آلِ عِمْرَانَ / ٨٥).

وَأَمَّا الْحُسْرَانُ بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ وَالْوُقُوعِ فِي الْهَلَعِ وَالْفَزَعِ؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١) (الْحَجَّ / ١١).



وَإِذَا نَظَرْنَا الْيَوْمَ مِنْ خِلَالِ مَا رَسَمَهُ الْقُرْآنُ لِحَيَاةِ الْفِتْمَةِ الرَّابِحَةِ النَّاجِيَةِ مِنَ الْخُسْرَانِ، فَيَهْوُلُنَا أَنْ نَرَى (الْخُسْرَ) يَحِيقُ بِالْبَشَرِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ. نَرَى

هَذَا الضِّيَاعَ الَّذِي تُعَانِيهِ الْبَشَرِيَّةُ فِي الدُّنْيَا- قَبْلَ الْآخِرَةِ، نَرَى إِعْرَاضَ الْبَشَرِيَّةِ ذَلِكَ
الإِعْرَاضَ الْبَائِسَ عَنِ الْخَيْرِ الَّذِي أَفَاضَهُ اللهُ عَلَيْهَا مَعَ فَقْدَانِ السُّلْطَةِ الْخَيْرَةِ الْمُؤْمِنَةِ
الْقَائِمَةِ عَلَى الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ..

فَكَيْفَ نُعْرِضُ -بَعْدَ هَذَا- عَنْ هَذَا الْخَيْرِ ... عَنِ الْمَنْهَجِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لَنَا
... عَنِ الدُّسْتُورِ الَّذِي شَرَعَهُ لَأُمَّتِنَا ... عَنِ الطَّرِيقِ الْوَحِيدِ الَّذِي رَسَمَهُ لِلنَّجَاةِ مِنْ
الْحُسْرَانِ وَالضِّيَاعِ؟

كَيْفَ نَتْرُكُ هَذَا الْمَنْهَجَ وَهَذِهِ الرَّايَةَ -رَايَةَ الْإِيمَانِ- الَّتِي انْتَصَرَ الْعَرَبُ تَحْتَهَا وَسَادُوا
وَقَادُوا الْبَشَرِيَّةَ قِيَادَةً خَيْرَةً قَوِيَّةً وَاعِيَةً نَاجِيَةً لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِهِمْ وَفِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ
الطَّوِيلِ، وَتَعَلَّقَ بِرَايَاتِ عُنْصُرِيَّةٍ أَوْ مُسْتَوْرَدَةٍ لَمْ نَنْلُ تَحْتَهَا خَيْرًا قَطُّ فِي تَارِيخِنَا كُلِّهِ وَلَمْ يَنْدَلِ
أَهْلُهَا مِنْ وَرَائِهَا خَيْرًا؟

فَأَيْنَ مِنْ ذَلِكَ هَذَا الضِّيَاعُ الَّذِي تُعَانِيهِ الْبَشَرِيَّةُ الْيَوْمَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالْحُسْرَارُ الَّذِي
تَبَوَّأَ بِهِ فِي مَعْرَكَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْعَمَاءُ عَنْ ذَلِكَ الْخَيْرِ الْكَبِيرِ الَّذِي حَمَلْتَهُ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ
لِلْبَشَرِ يَوْمَ حَمَلَتْ رَايَةَ الْإِسْلَامِ؛ فَكَانَتْ لَهَا الْقِيَادَةُ؟

فَلَمَّا تَرَكْتَ هَذِهِ الرَّايَةَ؛ فَإِذَا هِيَ فِي ذَيْلِ الْقَافِلَةِ، وَإِذَا الْقَافِلَةُ كُلُّهَا تَخْطُو إِلَى الضِّيَاعِ
وَالْحُسْرَارِ. وَإِذَا الرَّايَاتُ كُلُّهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِلشَّيْطَانِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لِلَّهِ. وَإِذَا هِيَ كُلُّهَا
لِلْبَاطِلِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْحَقِّ. وَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلْعَمَاءِ وَالضَّلَالِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ
وَاحِدَةٌ لِلهُدَى وَالنُّورِ، وَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلْحُسْرَارِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْفَلَاحِ! وَرَايَةُ اللهِ
مَا تَزَالُ، وَإِمَّتَاهَا لَتَرْتَقِبَ الْيَدَ الَّتِي تَرْفَعُهَا، وَالْأُمَّةَ الَّتِي تَسِيرُ تَحْتَهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالهُدَى
وَالصَّلَاحِ وَالْفَلَاحِ.

ذَلِكَ شَأْنُ الرَّبِّحِ وَالْخُسْرِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ .. الرَّبِّحُ الْحَقُّ وَالْخُسْرُ الْحَقُّ .. وَهُوَ عَلَى عَظَمَتِهِ إِذَا قِيسَ بِشَأْنِ الْأَخْرَةِ صَغِيرٌ. وَهُنَاكَ .. هُنَاكَ.

هُنَاكَ؛ رَبِّحِ الْجَنَّةَ وَالرِّضْوَانَ، أَوْ خُسِرِ الْجَنَّةَ وَالرِّضْوَانَ .. هُنَاكَ حَيْثُ يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ أَقْصَى الْكَمَالِ الْمَقْدَرِ لَهُ، أَوْ يَرْتَكِسُ فَتُهْدَرُ أَدَمِيَّتُهُ، وَيَنْتَهِي إِلَى أَنْ يَكُونَ حَجْرًا فِي الْقِيَمَةِ وَدُونَ الْحَجَرِ فِي الرَّاحَةِ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النَّبَأُ/٤٠) ..

وَهَذِهِ السُّورَةُ حَاسِمَةٌ فِي تَحْدِيدِ الطَّرِيقِ .. إِنَّهُ (الْخُسْرُ) .. ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ .. طَرِيقٌ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ؛ طَرِيقُ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقِيَامِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي تَتَوَّصَلُ بِالحَقِّ وَتَتَوَّصَلُ بِالصَّبْرِ، وَتَقُومُ مُتَضَامِنَةً عَلَى حِرَاسَةِ الْحَقِّ [بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ] مَزُودَةً بِزَادِ الصَّبْرِ.

إِنَّهُ طَرِيقٌ وَاحِدٌ؛ لِأَبَدٍ فِيهِ مِنَ التَّعَاهُدِ عَلَى وُجُودِ دُسْتُورِ حَارِسٍ لِلْفَرْدِ وَلِلْأُمَّةِ ..

